الجزء الثاني المجلد الرابع والثلاثون

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ نيسان سنة ١٩٥٩ م ٢٣ شهر رمضان سنة ١٣٧٨ هـ

سخرية الشدياق

كنت كلما أقلّب النظر في صور رجالات العصر الحديث أحبس هذا النظر على صورة أولعت بها الولع كله ، أرى طربوشاً حميدياً منحدراً الى الأذنين كأنه بَقْطينة على رأس صاحبه وعينين ان لم تكونا مثل حبّتين من حمّص ذابل فانهما مثل جوزتين خضراوين ناضرتين يشيع الخبث فيهما وأرى لحية قد بعثرت شعراتها على الخدّين ومن تحتها عقدة ملتفة من العنق الى الصدر يحسبها الإنسان لأوّل وهلة ضفدعاً على منضدة التشريح أرى هذا كله وأرى وقفة تشبه وقفة الأسد فأقول : على أيّ شيء تنطوي هذه الصورة ، وأنا غير مطلع على علم الهيئة !

صاحب الصورة أحمد فارس الشدياق .

طلع القرن التاسع عشر فطلعت فيه عبقرية لا أبالغ اذا قلت انها أعظم عبقرية نشأت في تلك الأيام واذا كان المجال لا يتسع للكلام على هذه العبقرية من مجامع نواحيها فاني أرجو أن يتسع للكلام على ناحية واحدة منها انفرد بها صاحبها وهي السخرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غير أني لا أستطيع التبسط في هذه السخرية والاشارة الى مختلف مظاهرها الاّ اذا أوجزت في الإشارة الى العصر الذي عاش فيه الشدياق لأنّ بين أوضاع ذلك العصر وبين سخرية الشدياق نسبةً مستحكمة الأواصر ، لقد هدم وبنى ولكنه لم يستخدم في بنيانه الاّ السخرية وحدها ، ثار ثورة على عصره إن لم تنفجر فيها الدماء فقد انفجر فيها شيء أرهب من سفك الدماء ، انفجرت فيها سخرية كان وقعها في الافهام أشدّ من وقع السهام في الأجسام .

* * *

راقب الشدياق عصره في أكثر جوانبه ، فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ذلك العصر ، لقد تولى في كتابه : الساق على الساق تدوين سيرته ولكن قد يتخلل هذا التدوين استطراد الى ذكر أمور تتصل بعصره مثل أمور الرهبان والكتاتيب والحكام والأمراء والأغنياء والنساء والحياة الاجتماعية ومعاملة الترك للشعب وبعض الطوائف والأديان أو ذكر أمور فنية كالشعر والموسيقى وغيرهما ، واذا ما قابلنا بين العصر الذي عاش فيه الشدياق وبين العصر الذي نعيش فيه استطعنا أن ندرك هذا الإسراع الذي تسرعه حياتنا الى الكمال ، فلولا الشدياق وأمثاله من أصحاب العيون الثاقبة والأذهان النافذة لما كدنا نحيط بتلك الظلمات غير البعيدة عنا ونقابل بينها وبين هذا الضياء الساطع في حياة أيامنا .

راقب الشدياق الرهبان في أديارهم وقد كان سبب هذه المراقبة اضطهاد الموارنة لأخيه أسعد الذي كان يحبه حباً جماً ، تتبع زلاّتهم وبحث عن خفايا أمورهم وكشف الغطاء عن سيرتهم فلم يجد في الأديار الاّ جهالة جهلاء وضلالة عمياء .

همُّ رجال الدين على نحو ما قال لنا أن يتعلموا بعض قواعد في اللغتين العربية والسريانية لمجرّد العلم بها فقط من دون فائدة إذ لم يُعلم الى الآن أنّ أحداً منهم ترجم كتاباً أو كرّاسة مفيدة في هاتين اللغتين ولا أنّ البطرك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمر بطبع كتاب فيها وانما كان ينفق دخله على الولائم والمآدب التي يهيؤها لزوّاره وأمراء الجيل ومشايخه .

إلاّ انه لم يقتصر على التنديد بجهل الرهبان وانما ندّد بعفتهم فجال في هذا الباب مجالاً لا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيله .

خرج الشدياق من الأديار فضرب بعينيه في الكتاتيب فرأى المعلمين في كتاتيب الجبل لم يطالعوا مدّة حياتهم كلها سوى كتاب الزبور وهو الذي يتعلمه الأولاد هناك لا غير من دون أن يفهموه بل فهم معانيه على ما وضحه الشدياق محظور ولماذا هذه الأساليب السقيمة في التعليم لقد شرح لنا ذلك فقال :

« والظاهر أنّ سادتنا رؤساء الدين والدنيا لا يريدون لرعيتهم المساكين أن يتفقهوا بل يحاولون ما أمكن أن يغادروهم متسكعين في مهامه الجهل والغباوة » .

غادر الأديار والكتاتيب فدخل السرايا فرأى أن الحكام لا يقلدون الوظائف إلاّ ناساً جهلاء وهذه هي الصورة التي خلفها لنا في هذا المعنى :

« لم يكن حاكم البلاد يستخدم من الكتّاب الاّ من بذأت العين خطه وعاف الذوق السليم كلامه اشعاراً بأن الحظّ لا يتوقف على الخط وان ادارة الأحكام لا تفتقر الى تهذيب الكلام وان كثيراً قد نالوا المراتب السامية والمناصب السنية وهم لا يحسنون توقيع اسمهم الشريف » .

أديار تكاد الحياة تكون فيها فسخة ، وكتاتيب تعلم القراءة من غير فهم المعاني وحكام ينقلبون في الجهل فكيف لا ينشأ عن حالات مثل هذه الحالات ظلم واستبداد فإذا تعدّى أحد الناس على أحد وفرّ من القِصاص أُخذ بذنبه على نحو ما رواه الشدياق أحد أهله أو جيرانه أو ماشيته أو ماعونه وقطع شجره وأحرق منزله .

وكانت للحكام حالة خاصة في الاستعلاء فاذا سأل الأمير أحد الناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عن شيء وتلعثم في الجواب أو تروّى فيه سبّ آباءه وأجداده ولعنه وتهدّده بالصلب أو بسمل عينيه .

تغلغل الشدياق بعد هذا كله في طبقات الشعب فوجد أن الأغنياء لا يسافرون ولا يختبرون أحوال الأمم وعاداتهم وأطوارهم وأخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم ووجد أنّ المرأة أمية في عزلةٍ عن المجتمع لا تعاشر أحداً سوى الخوادم وأهل البيت فكانت تحصّل معارفها كلها من الخوادم لا غير .

إلاّ أنه رأى في المرأة طبائع حسنة فصوّرها على هذا الوجه :

« من طبع هؤلاء المخلوقات المباركات سلامة النية وصفاء العقيدة والتقرب الى الرجال لا عن فجور فترى المرأة منهنّ متزوجة كانت أو ثيبة تجلس الى جانب الرجل وتأخذ بيده وتلقي يدها على كتفه وتُسند رأسها على صدره وتبسم له وتوآنسه في الحديث وتتحفه ببعض ما تصل اليه يدها . كل ذلك عن صفاء نية وخلوص مودّة وأحسن ما يرى فيهنّ البلاهة فانها في النساء خير من الفكر والدهاء » .

لقد أمعن الشدياق في تصوير المرأة في عصره تتبعها في كل شيء ، في محاسنها وأحاديثها وهو مولع بالمقابلات بين نساء ونساء وبين ثياب وثياب ، دخل دمشق فوصف نساءها فقال :

« فأما نساء المسلمين فقد ظهر لي في بادئ الرأي أنهنّ أجمل من نساء النصارى كما أنّ الرجال من المسلمين أجمل من النصارى وأفصح لهجة وكذا هم في سائر البلاد الإسلامية ولون النساء عموماً البياض المشرب بالحمرة والغالب عليهنّ الطول والشّطاط غير أنّ هذا الإزار الأبيض التي يتزرن به عند خروجهنّ من ديارهنّ لا يحلو للعين لكبر نساء مصر وكلاهما مخف لمحاسن القدّ ولعلهن يلبسن ذلك عمداً لتأمن الرجال فتنتهنّ فلهنّ الشكر عليه ! » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يكتف بوصف أمية المرأة وطبائعها وهيئتها في عصره وانما دخل عليها الدور والمنازل فرأى كيف تأكل وكيف تجلس وحَسْبنا أن نعرف أن النساء كنّ يقعدن على الأرض وهي عادة ألفنها ولا يرين فيها عيباً وأكثرهن تبدي ثديها .

واذا فرغ من مراقبة المرأة في جلستها وأكلها انصرف الى مراقبة الأمراء فقال فيهم : « انهم يقعدون على الحصير وعند النوم يرقدون فوقه على فراش واحد وربما اجتزؤا بالبيض والأرز واللبن عن الحمام والفراخ والدجاج من دون شراب ولا فاكهة ولا نقل وأرجلهم ظاهرة فاذا قعدوا على الحصير خلعوا نعالهم بالقرب منه فتبقى بمرأى منهم وترى بعض خدمهم يقوم على رؤسهم أي بازائها لا فوقها وفي حزامه الملعقة وآخر في جيبه الطاس من فضة إشارة الى غنى الأمير والى كونه أحد الناس غير مستغن عن اللعق والشرب وهو قاعد مطرق لا كتاب عنده فيطالعه ولا مسير له فيسامره ولا آلة لهو تطربه وهو يقضي ساعات من النهار هكذا بل يوماً وأياماً ولا يرى من امرأة أصلاً . »

لم يغفل الشدياق عن ناحية من نواحي عصره في وطنه ولما ذهب الى مصر عاد الى دأبه من المراقبة والتتبع كان للترك في مصر سلطة . كان لهم سطوة على العرب وتجبر وصفها الشدياق فقال : « حتى ان العربي لا يَحِلّ له أن ينظر الى وجه تركي كما لا يَحِل له أن ينظر الى حرم غيره واذا اتفق في نوادر الدهر ان تركياً وعربياً تماشيا أخذ العربي بالسنة المفروضة وهي أن يمشي عن يسار التركي محتشماً خاشعاً فاذا عطس التركي قال له العربي : رحمك الله ! واذا تنحنح قال : حرسك الله ! واذا مخط قال : وقاك الله ! واذا عثر عثر الآخر معه اجلالاً له فقال : نعشك الله لانعشنا ! »

هذه طائفة يسيرة من أوضاع عصر الشدياق ظلمات بعضها فوق بعض ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ظلمات في الأديار والكتائب ظلمات في حياة الرجل والمرأة ظلمات في الحكم والسياسة ظلمات في الحياة الاجتماعية بحذافيرها ... لقد ثار الشدياق على هذا كله ولكن ما هو المسلك الذي سلكه في ثورته . هذا هو موضوع حديثنا .

***

اذا كانت السخرية في قديم الدهر طريقة بسيطة من طرق المناظرة لجأ اليها سقراط فنسب اليها اسمه فقد أصبحت بومنا هذا طريقة من الطرائق التي نتقي بها المواطف العنيفة وندفع بها عن أنفسنا الأهواء العميقة فنحن نخاف أن نألم ، نخاف أن نتلف ، نخاف أن يزعجونا في عاداتنا وهدوئنا فنسخر بدلاً من أن يكدّرنا مكدّر ، فنضع بهذه السخرية كل أمر من أمور الناس في نصابه ونعلمهم كيف نحكم على سيرتهم ، انّا لا نجرأ على أن نجرحَ الناس جرحاً مكشوفاً ولكنا نقصد الى أساليب ثانية من هذه الأساليب : السخرية .

هذه خلاصة ما قاله أحد رجال الاكادمية في باريز ، ولقد لجأ الشدياق الى هذه الأساليب التي لا تجرح جرْحاً مكشوفاً ، يقول ڤولتير : اذا أردت القضاء على خصمك فاجعله هُزْأة ، لقد جعل الشدياق عصره كله هزأة ارادة منه أن يهدمه ويبني بدلاً منه عصراً كاملاً من كل الوجوه .

لم يكن الشدياق من طبقة الكتّاب الذين يراقبون عصورهم فيشهدون مفاسدها وما اختلّ من أوضاعها فيقتصرون على تهديم ما اعوجّ من هذه الأوضاع دون التفكير في شيء من تقويم الاعوجاج والتنبيه على ما فيه صلاح المجتمع ، وقعت عينه على مساوئ عصره بأجمعها فاستعمل كلّ ما أتاه الله من مواهب السخرية والأدب والعقل في اصلاح الدين وتقويض ما أحاط به من حياة فسخة في الأديار وجهل مستفيض في الرهبان والشعب والحكام والأمراء والشيوخ وفساد في العادات والتقاليد والآداب وقساوة في معاملة الولاة للرعية واستبداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بأمور السياسة وزهدٍ في الفنون اللطيفة وجمود في بعض مذاهب الأدب وفي غير هذا كله من أمور الحياة ، لقد ثار على كل مفاسد عصره ولكنه لم يفكر في لفظ من ألفاظه ولا في جملة من جمله ولا في فصل من فصوله في الاغراء بسفك الدماء . لقد كانت ثورته هادئة هدوء نسيم الفجر ، صافية صفاء الينابيع ، آله خصام الناس وخلافهم وعداؤهم فدعاهم الى ضروب من الأخلاق لا خصام فيها ولا خلاف ولا عداء ، دعاهم الى بناء الأخلاق على العلم فقال :

«ما بال علماء الرياضة والهندسة والتنجيم لا يختلفون في أدلتهم وان اختلفوا لم يشبوا ناراً لتحقيق نحلتهم» .

ثار على الرهبان ثورة شديدة ، ثار على جهلهم ، ولكن كيف كان يسخر بهذا الجهل ، كان يلجأ الى طريقة خبيثة في الدلالة عليه تشبه طريقة الجاحظ في القديم فهو يورد النكتة الناطقة عن جهل الرهبان دون ذكر هذا الجهل .

أعمل فكره وهو في ديرٍ من الأديار في نظم بيتين في المدس فالتبست عليه لفظة فقام في طلب القاموس فطرق باب جاره وكان من المتحمسين في الدين فقال له : هل عندك يا سيدي القاموس ، قال : ما عندنا بالدير جاموس بل ثيران ، فطرق باب آخر وكان أشدّ منه خشونة فقال له : هل لك في أن تعيرني القاموس ساعة قال : اصبر عليّ الى نصف الليل فان الكابوس لا يأتيني إلاّ في هذا الوقت ، فمضى الى غيره وأعاد عليه السؤال فقال له : أيّ شيء هو هذا القاموس يا ماعوص !

وهكذا سخر بجهل رجال الأديار دون شيء من الشتم والقذف وقد أعانه على هذا تبحره في اللغة ووقوفه على غرائب الألفاظ التي تنفُخ روحاً في النكتة في بعض الأوقات .

وكما هزأ بجهل الرهبان فكذلك هزأ بالأمراء والحكام ، أراد أن يصوّر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استعلاءهم وبعدهم عن طبقات الشعب فقال : ان الأمير في ذلك العصر لا يرى منه إلاّ قذاله من بعدٍ ولا يتاح لكل واحدٍ تقبيل يده الشريفة .

وقد أضاف الى هذه الصورة صورة أخرى فقال :

واتفق أن زارني في صباح ذلك اليوم بعض الأمراء الذين ينبغي أن يقال لما أثبتوه : نعم ، في موضع لا ، ولما نفوه : لا ، في موضع نعم .

هكذا كانت عقول أمراء الجبل في عصر الشدياق واذا كان الناس على دين ملوكهم فقد كان كتّاب الأمراء على دين الأمراء أنفسهم ، سأل الشدياق أحدهم مرّة مسألة تتصل بخير الحياة وشرّها ، بلذّتها وألمها فصلّها ابن حزم في بعض كتبه فقال كاتب الأمير : انّ سعادتي في الكون هي أن أرضى عن أميري ويرضى عني ، وشقاوتي هي أن أغضب منه ويغضب مني وقد نسيت كلّ ما جرى عليّ من الغضب لكثرة المشادّة والمقتضي فان صبرت عليّ في المستأنف شهراً لأقيد في دفتري ما ألقاه منه حلواً ومرّاً ، ونفعاً وضرّاً أفدتك الجواب !

ولا شك في أنّ هذا النمط من الكتاب أشدّ موافقة لهذا النمط من الأمراء .

ولقد كانت سخريته بالناس الذين كانوا يزهدون في تعليم المرأة مثل سخريته بالرهبان والأمراء وكتّابهم ، لماذا زهد الناس في هذا التعليم ، لأنهم على نحو ما قال الشدياق يزعمون ان علم القراءة مفسدة للنساء وانّ المرأة أوّل ما تستطيع ضمّ حرف الى حرف تجعل منها كتاباً الى عاشقها .

فهل من كلام أبلغ في السخرية من قوله : ضمّ حرف الى حرف أو قوله : تجعل منها كتاباً الى عاشقها ، في سطر واحدٍ صوّر جهل عصرٍ بجذافيره وصبّ سخريته على هذا الجهل .

انتقل من السخرية بالزهد في تعليم المرأة الى السخرية بالزهد في الفنون اللطيفة ، كان أهل عصره يعتقدون على نحو ما قال ان صنعة الألحان والعزف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالملاهي بتسم صاحبها بالشين لما في ذلك من التطريب والتصبي والتشويق والقوم يحذّرون من كل ما يلذّ الحواس ولذلك لا يشاؤن أن يتعلموا الغناء والعزف باحدى آلات الطرب أو يستعملوها في معابدهم وصلواتهم كما تفعل مشايخ الافرنجة خشية أن يفضي بهم ذلك الى الإلحاد .

غادر هذه الطبقات وتغلغل في المجتمع فوقعت عينه على الأطباء والأطباء لم يسلموا من شرّ الأدباء لا في القديم ولا في الحديث قال الشدياق فيهم :

فاني أرى هؤلاء الأطباء يعالجون الأمراض بالخرص والتخمين فما يهتدون الى العلة والمعلول الاّ بعد أن تبلغ الروح الحُلقوم فيجرّبون مرّة دواءً ومرّة أخرى غيره ثم لخّص رأيه فيهم في قوله :

غير أن الطبيب رسول عزرائيل منعني من الحركة .

فما أظن أن الهجاء الشديد يعدل قوله : رسول عزرائيل !

وهل كان الشدياق رؤفاً بأصحاب الجنس الأنيس ، رفيقاً بالقوارير ، أراد أن يُظهر طبيعة من طبائع النساء ، ما هي هذه الطبيعة ، ولهنّ بالثناء والمديح فهو يعرف أنهنّ يجهلن القراءة وعلى الرغم من هذه المعرفة قال فيهنّ :

لا شيء يصعب على فهمهنّ مما يؤول الى ذكر الوصال والحبّ والغرام فهنّ يستوعبنه ويتلقفنه من دون تلعثم ولا قصور وحسبي أن يبلغ مسامعهنّ قول القائل : ان فلاناً قد ألّف في النساء كتاباً فضلهن به على سائر المخلوقات فقال : انهنّ زخرف الكون ونعيم الدنيا وزُهاها وغبطة الحياة ومناها وسرور النفس ومشتهاها . . . فاذا قدّر الله بلوغ هذا الخبر المطرب مسامع احدى سيداتي هؤلاء الجميلات وسرّت به وفرحت ورقصت ومرحت رجوت منها وأنا باسط يد الضراعة ان تبلغه أيضاً مسامع جارتها وأملت من هذه أيضاً أن تطالع به صاحبتها حتى لا يمضي أسبوع واحد إلاّ ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينة كلها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بهذا النوع من السخرية البارعة شهر الشدياق ناحية من نواحي النساء .

وكثيراً ما كان يجري على أصول الجاحظ في سخريته ببعض المعتقدات ففي فصل من الفصول استفاضت طائفة من الأفكار تتعلق بالحياة وفلسفتها فنقل شيئاً مما يتناظر فيه الناس ويتجادلون ، من ذلك قوله :

فقال بعض : ألا ان درجات السماء مائة وخمس فقال غيره : ألا انها مائة وأربع فقال آخر : لقد كذبتما واستوجبتما قطع اللسان وسمل العينين وسلّ الأنثيين : انما هي مائة وست !

ان اثبات أمثال هذه المجادلات والمناظرات على هذا الشكل لا يخلو من سخرية خبيثة ، فهو لا يتعرّض لها ولا ينقدها أو يناظر فيها وانما يقتصر على ذكرها دون ابداء الرأي فيها ويترك للقارئ الحرية في الحكم عليها .

والخلاصة لم يترك الشدياق أحداً في عصره حتى ان الأدباء والشعراء والمنشئين لم ينجوا من سخريته كما لم تنجُ منها بعض عناصر الثقافة وفي مقدمتها النحو . روى كلاماً على لسان بعض الأساتذة يتصل بتطويل أبواب النحو وأظنه هو صاحب هذا الكلام قال : قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس فكنت أميل الى ما قالته الفلاسفة من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناهٍ فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عني والحمد لله ذلك الإبهام !

أمّا في باب السياسة القومية فقد لجأ الى تحريك العرب بشكل من السخرية يهزّ الجماد قال : وقد سمعت ان الترك هنا ، أي في الاسكندرية ، عقدوا مجلس شورى استقرّ رأيهم فيه لدى المذاكرة على أن يتخذوا لهم مركباً وطيئاً من ظهور العرب فانهم جرّبوا مروج الخيل وبراذع الجمال وأكفها وأقتاب الإبل وبواصرها وحُصُرها وسائر أنواع المحامل فوجدوها كلها لا تصلح لهم ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما أظن أن كلاماً يستفزّ العزائم أقوى من هذا الكلام ثم استمرّ في هذا النحو من السخرية فقال :

ولم أدر ما سبب تكبر هؤلاء الترك على العرب مع أن النبي (ﷺ) كان عربياً والقرآن أنزل باللسان العربي والأئمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عرباً غير اني أظن أن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن النبي (ﷺ) كان يقول : شوبله ! بويله ! أو : بقالم ! بقالم ! لا والله ما كان هذا لسان النبي ولا لسان الصحابة والتابعين والأئمة الراشدين ، رضي الله عنهم أجمعين الى يوم الدين . آمين ! آمين ! وبعده آمين !

خلق الشدياق خفيف الروح والظل ومن نظر الى صورته في شيخوخته فلا بدّ له من أن يرى في تضاعيفها شيئاً من هذه الخفة على أنه لم ينشأ في صدر حياته على النعيم والترف وانما ذاق كثيراً من مرارة الحياة قبل أن يصل الى حلاوتها ونضارتها فقد كان على نحو ما قال يُكبّ على النسخ وفي طلعته مبادئ المسخ فكان يُرى غائر العينين ذاوي اليدين ناتئ عظم الخدين زائغ الجلد كالظل حتى كان يرثي لحاله وأظن أن لخشونة حياته سراً كبيراً في سخريته الاّ ان مزاجه غلب على مصاعب الحياة وكان مرح نفسه أقوى من كآبتها فما كانت تمرُّ به فرصة دون اغتنامها للتخفيف من كربه ومن يدري فقد تكون شدّة الحياة على بعض النفوس باعثاً لها على النشاط والضحك والإضحاك نشأ كما مرّ بنا في عصر ظلماته بعضها فوق بعض فاستعان على الخروج من هذه الظلمات وعلى إخراج أهل عصره منها بالسخرية فهو لم يشبه أولئك الكتّاب الذين تسودُّ الدنيا في عيونهم فيسوّدونها في عيون الناس . انه على الرغم من كل ما عاناه في أوّل حياته ضحك للدنيا وما زال يضحك لها حتى ضحكت له فصار في اكتهاله الى النعيم وأورثنا بفضل مزاجه المرح الضاحك الساخر ميراثاً من الأدب يظلّ خالداً على مرّ السنين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يقتصر على السخرية بمجتمعه وحدَه وانما رحل الى مالطـة والى بلاد الانكليز فأفرغ سخريته على كل ما انحرف عن سواء السبيل في كل أمرٍ من أمور الحياة فقد أصبحت السخرية ملكته الغالبة وسلطانه القاهر . تتبع أهل مالطة في كل شيء ، تتبعهم في طبيعة بلادهم وتحدّاهم في طائفة من معتقداتهم وعاداتهم في الزواج وآدابهم في الأكل والمخاطبات ونقّر عن بلادة عقولهم وعن ضيق لغتهم وعن تقاليدهم ولم ينجُ من قلمه البغايا أنفسهنّ .

سخر بآدابهم في الأكل فقال : واذا دعوت أحداً منهم الى مأدُبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه إلاّ الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل .

ولكني أرى أن كل أنواع السخرية بأهل مالطة في كِفة وان النوع الآتي من السخرية بالبغايا في كِفة وحدها ، قال فيهنّ :

« وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حُجرهنّ وبقلبنها تأدباً وتورعاً .

ما أطبعه على روح السخرية ، أيّ تأدب أم أيّ تورع في مقام مثل هذا المقام !

ولما ذهب الشدياق الى بلاد الانكليز اتسعت آفاق سخريته راقبهم في حركاتهم وسكناتهم ، سخر بالأساقفة كما سخر بالشرفاء ، فرغ من هذه الطبقة فانصرف الى جامعات الانكليز فلم يسلم المستشرقون وطلاّب الجامعة من تهكمه كما لم يسلم من هذا التهكم كتّاب الصكوك في انكلترة ولم يعفّ عن النساء في بعض الأوقات .

بعد هذا كله التفت الى مجتمعات الانكليز فاستهزأ ببعض آدابهم في المآدب وبعض عاداتهم وسخر بمآكلهم وطبخهم ودخل دورهم فسخر بمعاملة سيدات الدور للخوادم خرج من الدور فراقب الانكليز في لهوهم وحظهم ومراكبهم فلم يوفر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم أذواقهم في هذا اللهو وهذا الحظ وهذه المراكب ثم حرف نظره الى هيآت الانكليز فسخر بهذه الهيآت وبعض ثياب أصحابها كما سخر ببلادة الانكليز وطبائعهم وتحياتهم واجتماعاتهم ومعتقداتهم ومعاملاتهم الرسمية .

واذا تعذّر الاستقصاء في أنواع هذه السخرية كلها فلا أقلّ من الإشارة الى بعضها .

مساكين هؤلاء الرهبان الذين وقعوا في لسانه ، كان يتكلم على الأساقفة في قرى الانكليز وعلى منزلتهم في الناس فقابل بين ترفهم ونعيمهم وبين حضهم للناس على التقشف فقال :

وربما بلغ دخل أحدهم ألف ليرة فترى له أحسن الديار وعنده خدمة وعاجلة فاخرة وخادم يسوقها وعلى برنيطته شريطة من ذهب كخدمة الأمراء ثم اذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين الى القوت الضروري بالزهد في الدنيا وتجنب شهواتها ! . . .

أيّ مقابلة أبلغ من المقابلة بين ترف هذا الأسقف في حياته وبين دعوة الناس الى الخشونة . . .

أما طبقة الشرفاء في بلاد الانكليز فكانت سخريته بسخافاتهم فهي اذا خلت من الأذى فانها لا تخلو من الإضحاك ، وهذه هي مراسم زيارتهم .

« وينبغي لمن أكرمه الله عزّ وجلّ بزيارة أحد هؤلاء الأمجاد والماجدات ألاّ يذهب إلاّ في وقت الزيارة المعلوم وهو بعد الضحى وأن يكون مجمّلاً باللباس الفاخر نظيف الثياب حالقاً شاربيه مرجّلاً شعر رأسه بارداً أظافيره ماسحاً نعليه ساتراً كتفيه بجلد أبيض فان قولنا : المرء بأصغريه ، ولا تكلمك العباءة وانما يكلمك صاحبها ، وربّ حرّ ثوبه خلق لا محلّ له من الإعراب عندهم » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد تكون اللفظة في بعض الأوقات هي التي توحي الى الشدياق روح السخرية فمن قوله بعد أن وصف ما وصف من عادات أمجاد الانكليز وتقاليدهم :

وفي الجملة فان معاشرة هؤلاء الرؤس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال وربما دعاك أحدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء مقام عشرة أغدية . .

أما نساء الانكليز فقد ضربهن في المقاتل لمّا تعرّض لعفتهن . كان يصف الزواج ومراسمه فقال :

ولا بدّ للمتزوجة أن تلبس خاتم الزواج في بنصر يدها اليسرى ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وان كان لها خمسة بعول .

ولم تكن سخريته بالمجتمع الانكليزي أقلّ من سخريته بالانكليز أنفسهم فقد راقب في هذا المجتمع آداب القوم في المآدب وبعض عاداتهم فوجد فيها مادّة للسخرية . قال في بعض هذه المآدب .

أدبني أو أدب طربوشي أحد الوجوه في كمبريج الى أن أشرب الشاى معه فقال : هل لك في أن تشرب الشاي معنا في إحدى الليالي ولكن بعد ثلاثة أسابيع قلت : نعم ، حتى اذا سرتُ اليه لم أجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه مع أني كنت أظن أن توقيت تلك المدة انما كان لجلبه من بعض البلاد .

ولئن سخر بغرابة عادات الانكليز في مآدبهم فقد سخر ببخلهم فقال لزوجته :

ثم ينبغي لك اذا دعينا الى وليمة عند أحد أكابرهم أن تأكلي هنا من قبل أن تذهبي فان المدعوين لا يأكلون عند أدبهم حتى يشبعوا ولكن يشبعون حتى يأكلوا . . .

ولقد كانت سخريته بما يتعلق بالمآدب والطعام خصبة فمن عادة الانكليز أن يدّخروا صنوفاً من الطعام فقال الشدياق : فربما كان عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكيف يمرُّ الشدياق بالانكليز فيرى هيآتهم ولا يفطن الى ثيابهم فمن سخريته بخياطة هذه الثياب قوله :

فان من يشتري ثوباً مخيطاً في لندرة يلزمه أن يستأجر معه خياطاً ليصلحه له في كل يوم .

والخلاصة اذا لم يجد الشدياق أحداً يسخر به سخر بنفسه من ذلك سخريته في مقدمة فصل عنوانه : الثلج :

لا غرو أن يجد بعض القارئين كلامي في هذا الفصل بارداً لأني كتبته في يوم عبوس قمطرير ذي زمهرير !

***

أكتفي بما أشرت اليه من أنماط سخرية الشدياق ولم أعرض هذه النماذج لمجرَّد العرض وحده وانما أحببت أن أستخرج من كل ما ذكرت أن الشدياق اذا خلق في ظلمات القرن التاسع عشر فقد عاش بعقله في ضياء القرن العشرين . لقد سبق عصره وتعدّاه وانتقل بعبقريته الى العصر الذي بعده فلئن كان ثائراً في مقدمة الثائرين فقد كان مجدّداً في طليعة المجدّدين ومصلحاً على رأس المصلحين .

يقول « اندره موروا » في فصل من كتابه : دراسات أميركية : من الكتب كتب تنزل حين صدورها منزلة الآيات البينات ثم لا تلبث أن تموت بعد بضع سنين وأن ينساها الناس على وجه الدهر ، ومن الكتب كتب ثلمت الشعور حين صدورها فلم ترق الناسَ إلاَّ أنها احتفظت بشباب عجيب ودخلت جنّات الخالدين .

فاذا صحَّ هذا القول وأظنه صحيحاً فان كتابات الشدياق جرحت بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشعور حين ظهورها إلاّ أنها على الرغم من ذلك احتفظت بشبابها واذا لم تدخل حتى اليوم جنّات الخالدين فقد آن لها أن تدخل هذه الجنّات .

لقد أبدع الشدياق في كتاباته حلاً للحياة الاجتماعية في القرن التاسع عشر ولكنه أبدع هذا الحلّ بروح جديدة في الأدب وهي السخرية ، انا نعيش في عصرٍ تباينت فيه العقائد وتباعدت المذاهب وتفاوتت مهابُ الأفكار الحديثة وكل واحدٍ يدافع عن عقيدته ويناضل دون مذهبه ويرامي دون مهابّ أفكاره ولكن كل واحدٍ لا يستطيع أن يضبط من جِماح بيانه أو لسانه واذا قبح شيء في هذا الدفاع وهذا النضال وهذه المراماة فلا يقبح شيء مثل جماح البيان واللسان فاذا علّمنا الشدياق أمراً فقد علّمنا هذه السخرية في تقويم كل اعوجاج واصلاح كل فساد ولا شك في أنها تعمل في العقول ما لا يعمله أيّ جماح كان .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net